الدكتور محمد المسير رحمه الله
من كتاب التمهيد في العقيدة
الإسلامية — ٨٣ —

مصادر العقيدة

العقيدة هي التي تتعلق بقضايا الوجود الكبرى فى الذات الإلهية والنبوة والبعث ، والتي يتوقف عليها الإيمان والكفر ، فمن أيقن بها وصدق وأذعن فهو المؤمن ومن أنكر وكذب وارتاب فهو الكافر ..

هذه العقيدة يحكمها العقل ويصحح مسارها الوحى ممثلا فى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة . .

العقل :

إن العقيدة — فى المقام الأول — عقل ، وما لم تكن عقلا فليست بدين صحيح ، والذين يطمسون معالم العقل فى العقيدة إنما يفتحون أبوابا للشيطان، تسوقهم إلى الوثنيات والخرافات والكهنوت الأسود والطلاسم العمياء ..

فالعقل هو مناط التكليف الشرعى ، وإذا سلب الله ما وهب من العقل سقط ما وجب من الشرع ، ولا دين لمن لا عقل له . . إن العقل وحده هو الذى يثبت وجود الله تعالى وكماله اللائق بذاته المقدسة .

وإن العقل وحده هو الذى يثبت الوحى والاصطفاء للأنبياء بدلالة المعجزة ، فما لم تكن معجزة يقر بها العقل فلا نبوة . .

والذين يجعلون الأخلاق العظيمة والأحوال الشريفة للأنبياء بديلا عن منطق العقل واهمون . فليس كل صاحب خلق يكون نبيا . . وإن العقل هو الذى يقدم دليل الجواز والإمكان لما وراء الطبيعة من أمور البعث ، ولو كانت منافية لمقتضى العقول ما كلف الله بها البشر ، ولما قبلها العقل . .

القرآن :

نحن لانأله العقل ولانمنحه أكثر مماهيأه الله له ، بل نضعه فى موضعه الصحيح ، ولا نقول إن العقل يستقل بالعقيدة كلها بل يحتاج إلى نور الوحى ممثلا فى القرآن الكريم ليقدم للإنسان الصورة الصحيحة للوجود الإلهى الأعلى وأسماء الله الحسنى وصفاته المقدسة ، وليرشده إلى المنهج فى عبادة الحق ومعاملة الخلق . .

وليفصح له عن المستقبل والمصير الإنسانى فى البعث والحشر والحساب والجزاء . .

وليقص القصص الحق عن تاريخ الأنبياء وأصول رسالاتهم ومناهج دعوتهم . .

والقرآن قطعى الثبوت متواتر ، محفوظ بعناية الله جيلا بعد جيل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها تحقيقا للوعد الإلهى « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »[١] .

لكن معانى القرآن قد تكون قطعية وقد تكون ظنية ، فما كان قطعى الدلالة فهو عقيدة يترتب عليها الإيمان والكفر ، مثل قوله تعالى « قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد » وما كان ظنى الدلالة فليس بعقيدة حتمية بل يجوز حولها الاجتهاد وذلك كالصفات الخبرية التى جاءت فى آيات التنزيل الحكيم مثل قوله تعالى « الرحمن على العرش استوى »[٢] وقوله جل شأنه « فإنك بأعيننا »[٣] ..

---

(١) سورة الحجر — الآية ٩
(٢) « طه — الآية ٥
(٣) « الطور — الآية ٤٨

فهذه الآيات وأمثالها وإن كانت قطعية الثبوت غير أن دلالتها ظنية .

السنـة :

تعـد السنة النبوية مصدرا من مصادر العقيدة إلا أن مرتبتها بعد القرآن المجيد ، لأن أغلبها أحاديث آحاد لم تبلغ مبلغ التواتر . .

وجمهور العلماء على أن أحاديث الآحاد لا تفيد القطع ولذا يجب العمل بها فى العبادات والمعاملات لأنه يكتفى فيها بالظن الغالب . .

أما العقائد فى الإلهيات والنبوات والسمعيات فلا يترتب على ما يثبت بالسنة إيمان أو كفر ، لأنها ظنية الثبوت حتى ولو كانت قطعية الدلالة . .

فإن تطرق الظن للثبوت أو الدلالة يرفع اليقين ، فلا يصبح الأمر الثابت بالظن عقيدة يتحتم الالتزام به ، وتصدر على أساس منه أحكام الإيمان والكفر . .

وقد نهى الله تعالى أشد النهى عن اتباع الظن فى العقائد فقال : « إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ،ماأنزل الله بهامن سلطان ، إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ، ولقد جاءهم من ربهم الهدى »(١) .

وتوعد المولى سبحانه أصحاب العقائد الواهمة بالخزى فى الدنيا والنكال فى الآخرة فقال : « ومن الناس من يجادل فى الله بغير علـم ولا هدى ولا كتاب منير ، ثانى عطفه ، ليضل عن سبيل الله ، له فى الدنيا خزى ، ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق »(٢) .

---

(١) سورة النجم — الآية ٢٣

(٢) « الحج — الآية ٩٠٨

وينبغى العلم بأن التوقف فى قبول خبر الآحاد ليس ردا لحديث رسول الله ﷺ ، وإنما هو توقف فى نسبته إلى الرسول الكريم ،

وقد تعلمنا فى مصطلح الحديث أن معنى الحديث الصحيح هو ما اتصل سنده بالعدول الضابطين من غير شذوذ ولا علة ، وليس مرادا به القطع واليقين بصدوره عن رسول الله ﷺ فقد يكذب الصدوق..وأن معنى الحديث المردود هو ما لم يتصل سنده بالعدول الضابطين ... الخ وليس مرادا به القطع واليقين بعدم صدوره عن الرسول ﷺ فقد يصدق الكذوب(١) ..!!

ومن هنا فلا محل لقول القائل :

« والعاقل يعلم أن الرسول معصوم فى خبره عن الله تعالى ، لا يجوز عليه الخطأ ، فيجب عليه التسليم له والانقياد لأمره،وقد علمنا بالاضطرار من دين الإسلام أن الرجل لو قال للرسول : هذا القرآن الذى تلقيه علينا، والحكمة التى جئتنا بها قد تضمن كل منها أشياء كثيرة تناقض ما علمناه بعقولنا ، ونحن إنما علمنا صدقك بعقولنا ، فلو قبلنا جميع ما تقوله مع أن عقولنا تناقض ذلك لكان قدحا فيما علمنا به صدقك . فنحن نعتقد موجب العقول الناقضة لما ظهر من كلامك ، وكلامك نعرض عنه ، لا نتلقى منه هديا ولا علما . .

لم يكن مثل هذا الرجل مؤمنا بما جاء به الرسول ، ولم يرض منه الرسول بهذا .

بل يعلم أن هذا لو ساغ لما أمكن كل أحد أن يؤمن بشيء مما جاء به

---

(١) راجع تدريب الراوى فى شرح تقريب النواوى للإمام السيوطى ، تحقيق د. عبد الوهاب عبد اللطيف جـ١ ص ٧٥ ط الثانية سنة ١٣٨٥هـ — ١٩٦٦ م دار الكتب الحديثة

الرسول ، إذ العقول متفاوتة ، والشبهات كثيرة ،والشياطين لا تزال تلقى الوساوس فى النفوس ، فيمكن كل أحد أن يقول مثل هذا فى كل ما أخبر به الرسول وما أمر به »[١] .

هذا الكلام فيه مغالطة ، لأنه لا أحد يطعن فى عصمة الرسول ﷺ ولا فى صدق خبره وإلا ما كان مسلماً أصلا ، وإنما المسألة كلها فى إثبات الحديث ونسبته إلى الرسول . .

والظن ليس فى قول الرسول وإنما الظن فى نسبة القول إلى الرسول ، والفرق واضح وكبير . .

ثم إن افتعال معركة بين الشرع والعقل ليس فى دين الإسلام ، فلا تناقض بين الشرع والعقل ، وصدق الله حيث يقول « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً »[٢] .

وهناك مؤلفات كثيرة حول هذه القضية منها :

• فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال ،لابن رشد (٥٢٠ — ٥٩٥ هـ) .

• درء تعارض العقل والنقل،لابن تيمية (٦٦١ — ٧٢٨ هـ) .

إن العلاقة بين الشرع والعقل علاقة متلازمة ، لا انفصال بينهما ، وإن الحقيقه لا تتراءى إلا بهما معاً . .

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبى العز الدمشقى ص ٢٢٠ ط المكتب الاسلامى سنة ١٣٩٩ هـ .

(٢) سورة النساء — الآية ٨٢ ، ونحن فى دراستنا العقدية قبلنا خبر الواحد تغليبا لحسن الظن ما لم يعارض قاطعاً عقلياً أو شرعياً ، ومقصودنا هو تضييق شقة الخلاف ، ومنع أحكام التكفير ، ودعوة جميع الفرق إلى الحوار . .

وقد عبر عن ذلك الإمام أبو حامد الغزالى (ت ٥٠٥ هـ) فقال : بل الواجب المحتوم فى قواعد الاعتقاد ملازمة الاقتصاد ، والاعتماد على الصراط المستقيم ، فكلا طرفى قصد الأمور ذميم ..

وأنى يستتب الرشاد لمن يقنع بتقليد الأثر والخبر ، وينكر مناهج البحث والنظر ، أو يعلم أنه لامستند للشرع إلا قول سيد البشر ﷺ ، وبرهان العقل هو الذى عرف به صدقه فيما أخبر ؟!

وكيف يهتدى للصواب من اقتفى محض العقل واقتصر ، وما استضاء بنور الشرع ولا استبصر ؟!

فليت شعرى كيف يفزع إلى العقل من حيث يعتريه العى والحصر ، أولا يعلم أن خطأ العقل قاصر وأن مجاله ضيق منحصر ؟!

هيهات قد خاب على القطع والبتات ، وتعثر بأذيال الضلالات من لم يجمع بتأليف الشرع والعقل هذا الشتات ..

فمثال العقل البصر السليم عن الآفات والآذاء ، ومثال القرآن الشمس المنتشرة الضياء ، فأخلق بأن طالب الاهتداء ، المستغنى إذا استغنى بأحدهما عن الآخر — فى غمار الأغبياء ..

فالمعرض عن العقل مكتفيا بنور القرآن ، مثاله المتعرض لنور الشمس مغمضا للأجفان ، فلا فرق بينة وبين العميان ..

فالعقل مع الشرع نور على نور[1] ..

---

(١) الاقتصاد فى الاعتقاد ص٣ ط مكتبة صبيح سنة ١٣٨٢ هـ — ١٩٦٢م .

أقوال السلف :

ما وراء القرآن والسنة فآراء بشرية لأشخاص غير معصومين ، يؤخذ منها ويرد عليها ، وقد تسمى أقوال السلف أو أقوال الصحابة أو أقوال التابعين . .

والذين يبنون عقائدهم على هذه الأقوال يحتاجون إلى تنبيه مهم ، فإن هذه الأقوال لم تخضع لمقاييس الضبط وأصول النقل وقواعد الإسناد التى خضع لها الحديث الشريف ، اللهم إلا ماندر منها . .

ومع التسليم الجدلى بصحة الإسناد فإن هـــذه الأقوال قد تكون منقولة عن أخبار وأحبار أهل الكتاب ، ونحن لا نصدق أهل الكتاب ولا نكذبهم فيما لا يخالف نصوصنا الشرعية ، ونرفض ماخالفها . .

وفى صحيح البخارى قال ابن عباس رضى الله عنهما :

كيف تسألون أهـــل الكتاب عن شىء وكتابكم الذى أنزل على رسول الله ﷺ أحدث ، تقرأونه محضا لم يشب ، وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدلوا كتاب الله وغيروه ، وكتبوا بأيديهم الكتاب ، وقالوا هو من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا ؟ !

ألا ينهاكم ماجاءكم من العلم عن مسألتهم ؟ !

لا والله ما رأينا منهم رجلا يسألكم عن الذى أنزل عليكم » .

وفى البخارى أيضاً :

كان أهل الكتاب على عهد رسول الله ﷺ يقرأون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال عليه الصلاة والسلام :

لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم . »

وقد تكون أقوال السلف آراء اجتهادية قالوها بأنفسهم ، ولكل مجتهد نصيب ، وهم رجال ونحن رجال وإن كان فضلهم فى السبق ونصرة الدين عند الله عظيما . .

وقد تكون أقوالهم آراء لا مجال للاجتهاد فيها ، ولها حكم الرفع إلى رسول الله ﷺ ، ولكنها أدنى درجة من الرفع الصريح ، ومع ذلك فهى لا تخرج عن كونها أحاديث آحاد لا تثبت بها عقيدة يترتب عليها إيمان أو كفر . .

إن أمة الإسلام لا تقدس أحداً من البشر ، واسـم القدوس من الأسماء الحسنى لله تعالى . .

ونحن نحترم السلف الصالح ونجلهم وندعو لهم التزاما بقول الله تعالى: « والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم »(١)

ورحم الله ابن مسعود حين قال :

« من كان منكم متأسيا فليتأس بأصحاب محمد ﷺ ، فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوباً ، وأعمقها علماً ، وأقلها تكلفا ، وأقومها هديا ، وأحسنها حالا ، قوماً اختارهم الله لصحبة نبيه وإقامة دينه ، فاعرفوا لهم فضلهم ، واتبعوهم فى آثارهم فإنهم كانوا على الهدى المستقيم »

إن التأسى بالسلف الصالح محمدة وشرف ، لكن التأسى لا يعنى عصمتهم ولا حجية آرائهم واجتهادهم فى عقائد الدين ، وإن هناك فرقا واضحا وجليا بين ما هو عقيدة يجب فيها القطع واليقين ، وبين ما هو عمل يكتفى فيه بغلبة الظن ورجحان الدليل . .

---

(١) سورة الحشر - الآية ١٠